وظائف الكتابة في اللغة العربية

أ/ هناء سعداني.
جامعة الوادي.

الملخص:

الكتابة من الصناعات المدنية التي تقوى بقوة الحضارة و تضعف بضعفها وتنعدم بانعدامها، والكتابة العربية اليوم تواجه العديد من الانتقادات بخصوص علاقة المكتوب بالمنطوق،لكن المتأمل يجدها ذات صلة متينة كونها تحمل في كل رسم كتابي للصوت وظيفة إما تمييزية أو صرفية أو عروضية أو نحوية.وهذا ما يحاول هذا المقال توضيحه.

Résumé :

L'écriture est une invention humaine qui se développe avec le progrès de la civilisation, régresse avec sa faiblesse et peut mourir avec sa disparition. L'écriture arabe dans son état actuel est confrontée à diverses critiques concernant la relation qui existe entre la parole et son écrit. Cependant, le chercheur averti trouvera que cette relation est organique, puisque chaque traduction du phonème en signe écrit porte en lui-même une fonction soit distinctive, grammaticale, métrique ou syntaxique. C'est ce que cet article essaye de le montrer.

إن اللغات البشرية تستعمل مادتين كوسيلتين للاتصال هما: " الهواء الناتج من حركات النطق والعلامات والرموز التي يتركها القلم أو الريشة أو المسمار على سطح ما، ورقة، لوحة، حجر.."1 ، أي أنها تستعمل الصوت والكتابة.

وما الصوت إلا أثر ندركه دون أن ندرك كنهه2، وهو ناتج عن " تموّج الهواء دفعة وبسرعة وقوة من أيّ سبب كان"3، لكنه حدث آني ، أي "عرض"4، وكي يُحافظ عليه - من أجل التواصل- قام الإنسان بفعل الكتابة، أي: وضع رسما خاصا يقابل كلّ وحدة موصوفة في المنطوق بمعناها وشكلها5، فحدّد رسما للحرف بتحديده رمزا كتابيا منظورا يعبّر عن صوت معيّن6.

وما " الحرف المكتوب المرسوم إلا صورة ذهنية للصوت المسموع المنطوق، وتحويل الصورة السمعية إلى صورة بصرية هي عملية تقريبية، فالصوت سابق للحرف في الزمان والتحقيق"7.

بعد أن وضع الإنسان رموزا لأصواته، عمل على تطويرها وتحسينها كي تتناسب مع منطوقها وتعبّر عنه بدقّة، معتمدا دوما على قاعدة أساسية تحكم حياته هي : " الأقل جهدا والأقل زمنا".

وكذلك فعل الرجل العربي؛ فاللغة العربية بأبجديتها المعروفة ليست أكثر حروفا من الأبجديات الأخرى، كالهندية والجرمانية واللغات الطورانية، أو الروسية التي يبلغ عدد حروفها خمس وثلاثين (35) حرفا، لكنها - أي العربية – مع ذلك شملت كل الحروف التي يمكن النطق بها وحافظت على الوضوح الكامل وعدم الالتباس في مخارج الأصوات.8

لكن في الواقع " عندما تقدّمت الدراسات الصوتية في القرن التاسع عشر، كتحليل علمي دقيق للأصوات اللغوية بدت نقائص الحروف الهجائية في التعبير الدقيق عن أصوات الكلام واضحة"9.

لذلك نتساءل اليوم:

لماذا تظهر هذه الهوّة بين المكتوب والمنطوق؟ وهل الأمر في العربية أشدّ سوء – كما يراه البعض –أم أن للكتابة في اللغة العربية وظائف تؤديها؟

** الواقع أن للعربية في كتابتها وظائف تؤديها، وهي عديدة أهمّها:

الوظيفة التمييزية لرسم الصوت:

أ نجد أن العربية ترسم الحرف الواحد بصور متعددة حسب موقعه من الكلمة، وهذا مما عابه البعض عليها، فمثلا:

أول الكلمة تُرسم (العين): عـ، ووسطها ـعـ، وآخرها ـع: ع في حالة الانفصال، و ـع عند الاتصال بما قبلها.

كذلك(الفاء) : (فـ، ـفـ، ـف، ف) ، و(الميم): (مـ، ـمـ، ـم، م). لكننا لا نرهق عند هذا الأداء بل هناك عامل مشترك لا يفقده الحرف بين كل هذه الحالات10.

* لكن لو أخذنا الحروف اللاتينية فهي تكتب تارة كبيرة: (H) وأخرى صغيرة (h)، لغرض أيضا (R، r) ، (T، t)، (G، g)، (A، a)، ولا نجد شبها بين النموذجين11. كما نجدها عندما تكتب موصولة تفقد غالبا صلتها بأصلها المنفرد نحو: (R،)، (F،) وغيرها.

أما العربية فهي تبيّن لنا ما نسمّيه بالوظيفة التمييزية، إذ كل اللغات تعتمد للفصل بين كلماتها على فراغ بين الكلمة والأخرى يسمّى بياضا12، لكن العربية تحقّق ذلك أيضا بالرسم، فإن غاب البياض منع رسم الحرف في آخر الكلمة اتصالها بأول الكلمة الآتية، وكذلك يفعل الحرف الأول من الكلمة مع ما قبلها.

ب* تعبير رسم الحرف عن صوت واحد:

إن كلّ رسم في العربية يعبّر عن صوت واحد، وإذا أردنا فتحه أو ضمّه أو كسره أضفنا ما يناسبه من الحركات ككل اللغات، إلا حرفا واحدا هو (ء) الهمزة، فهي

صوت له رسم مختلف في تلك الحالات، فيه تُرسم " فوق الألف أو الواو أو النبرة، وذلك أحيانا حسب الحركة السابقة والتابعة لها، والقواعد التي تحدّد الكتابة مستمدة من تنوعات في النطق"13

فمثلا: (ذِئب، فَأر، بُؤرة)، لكن مع ذلك يمكن تخفيفها (ذيب، فار، بورة)

* وإذا كانت صورة الهمزة في العربية: ء، ؤ، أ، ئ، فهي في الفرنسية والإنجليزية:

14a, à, i, y, ou, a, au, eau, e, é, è, ai, ay, u, e, eu, oeu

- أما باقي الحروف الأخرى فلا تعاني هذا الوضع، لكن عندما نرى الإنجليزية مثلا نجد الاحتمالات المستخدمة لكتابة (الشين) هي:

(ssi), (sci), (chs), (sc), (ss), (ti), (s), (ch), (c), (sh), (x), (se), (sch), (ci), (si)

وهي خمسة عشر (15) احتمالا، لا توجد قاعدة في الإنجليزية لترشد الكاتب إلى ضرورة اختيار أحد الاحتمالات دون غيره.15

ج تسمية الصوت:

يقول ابن جني: " كل حرف سميّته ففي أول حرف تسميته لفظه بعينه، ألا ترى أنك إذا قلت :(جيم) فأول حروف الحرف (جيم)، وإذا قلت: (دال) فأول حروف الحرف (دال)، وإذا قلت (حاء) فأول ما لفظت به (حاء)، وكذلك إذا قلت (ألف) فأول الحروف التي نطقت بها همزة. "16

وهو ما يسهّل حفظ اسم الحرف على الأطفال، والمتعلمين للعربية عموما، لكن تسمية الحروف غير العربية غير منظمة إذ تجدها: تارة في صدورها (بي، B)، (سي، C)، (دي،D)، وتارة في أعجازها (إف، F) وتارة خارجة عنه كليا: (آتش، H)17.

* د* التباس المخرج وتعدد النطق للحرف الواحد:

" ليس في اللغة العربية حرف يلتبس مخرجه من مخرجين وليس في النطق العربي مخرج يُنطق فيه حرفان وليس في اللغة العربية حرف يستخدم مخرجين، كحرف: (بس) في اللغة اليونانية وهو مختلط من الباء الثقيلة والسين، وليس فيها حرف يُعبّر عنه بحرفين كالذال والتاء اللذين يُكتبان بما يُقابل عندنا التاء والهاء (th)، ويتغير النطق بهما في مختلف الكلمات."18

* هـ* رسم الحركات:

1- رسم الحركات الطويلة:

إن الحركات الطويلة في العربية من الحروف التي رسمت قديما وهي من الأبجدية أصلا، لأن حروف المدّ عندنا تمثّل أيضا حروفا صامتة، وهذا يزيد إمكانية تأليف كلمات عربية ، لأن قطع حروف المدّ من الأبجدية يبقي عدد حروفها 28 حرفا،

لكنّ قطع حروف المدّ من الفرنسية مثلا يجعل عددها 19 حرفا صامتا فقط، من ثمّ ستكون إمكانية تكوين الكلمات فيها أقلّ.19

2- رسم الحركات القصيرة:

عند إمعان النظر نجد أن اللغة العربية ككل اللغات السامية تُعنى بالصوامت أكثر من الصوائت حتى أن وضع رمز للحركات القصيرة كان في القرن الأول الهجري. و أول ما يعاب على العربية أن الحركات القصيرة فيها ليس لها قيمة حتى أنها لا تتواجد في السطر بل ترسم حول الكلمة، ذلك إن لم تُسقط كليًا.20

لكن الحقيقة أن المعنى الأساسي للكلمة العربية موجود في صوامتها المكونة لها، ولا يزيد وجود الحركات على تخصيص المعنى21. و قد عاش العربي دهرا دون حركات مرسومة، ألّف فيها أفضل أشعاره وتناقلها، حتى أن القرآن كُتب أول الأمر دون حركات، لكن غير العربي في الواقع هو من يحتاج إلى الشكل للعربية كي يحسن قراءتها.

وفي كتابة العربية على هذا النحو اقتصاد كبير وتوحيد على المستوى الخطي للجذر.22

و ترتيب الحروف حسب رسمها:

العربية رتّبت - على يد نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر- حروفها حسب رسمها، فكانت متقاربة في اللفظ والنسق والشكل23، كما أن العربي رتّب مادته اللغوية في المعاجم حسب تدرّج أصواتها في الجهاز النطقي بحيث ضمّ مرة الرسم للصوت، ومرة أخرى ضمّ الصوت للمعنى.

الوظيفة الصرفية لرسم الصوت:

وذلك عند تحديد عنصر من البنية الصرفية مثلا: الألف في: (بنى ـــ يبني) (عفا ـــ يعفو) فاختلاف شكلها بين (بنى، عفا) في الماضي دال على أصل لام الفعل.24

الوظيفة العروضية لرسم الصوت:

تظهر هذه الوظيفة عندما يبيّن الرسم في العروض الاختلاف في تقسيم التفعيلة إلى أسباب وأوتاد. نحو: (مستفع لن، مستفعلن)، فالأولى مكونة من سببين يتوسطهما وتد مفروق، [مستفع لن: (/0) (/0/) (0/)]، والثانية مكونة من سببين بينهما وتد مجموع [مستفعلن: (/0) (/0) (//0)]25.هنا عمل الرسم أيضا لتمييز قضية عروضية.

الوظيفة النحوية لرسم الصوت:

يختلف رسم الحرف لوظيفة نحوية، فتاء التأنيث في : (جماعة، قطة) تكتب حسب الشكل (ـة)، وتاء جمع المؤنث السالم (جماعات، قطّات) تكتب حسب الشكل: (ت). وذلك كان للتفريق بين التأنيث وجمع المؤنث السالم.

في العربية نرى مثلا أداة التعريف تدوّن: (ال) وهي أحيانا لا يُنطق منها إلا باللام أو الألف، وأحيانا لا يُنطق منها بشيء: - القمر، تحت القمر.

- الشمس، تحت الشمس.

لكن الحروف تُحذف في النطق وتبقى في الخط، وهذا الشيء إيجابي لأن القارئ ، بمجرد أن يرى الرمز (ال) يحدّد الاسم في الجملة أو النعت إن كان هناك نعت، ويعرف أن هذا الاسم معرّف، فالرمز الخطي (ال) يتعدّى التمثيل الصوتي ليصير رمزا نحويا بحتا.26

نون التنوين:

" التنوين من الناحية الصوتية نون تأتي بعد علامة الإعراب، ولكنهم لم يرسموه كنون، واكتفوا بتكرار حركة الإعراب مضيفين أحيانا ألفا.

فرمز التنوين إلى جانب وظيفته الصوتية له دلالة نحوية، وهي الإشارة للاسم النكرة، وطريقة وضعه تمكّن من المحافظة على شكل الاسم وتجنّب اللبس بينه وبين الفعل."27

نحو: (طَرَبٌ، طربُنْ)، (كُتُبٌ، كُتُبُنْ)

الألف التي ترسم بعد واو الجماعة تقع موقع النون المحذوفة تارة: (يخرجون، يخرجوا)، وتارة تُظهر التقابل بين فعل معتل اللام، وفعل لامه حرف سالم: (خرجوا، يسمو).

وظيفتها في الحالة الأولى الدلالة على الفعل وفي الحالة الثانية وظيفتها تمييزية.28

* إذا نظرنا إلى الفرنسية نجد ما يلي: " عندما نعبّر عن اسم المفعول (ri) في : (il a ri- هو ضحك) إلى شخص المخاطب (ris) في : (tu ris- أنت تضحك)، أو شخص الغائب: (rit) في (il rit- هو يضحك)، فالنطق لا يختلف، ولا شيء ينبّه – مطلقا- الولد الذي يكتب أن عليه أن يكتفي بـ: ri في الحالة الأولى، وأن يضيف s في الثانية و t في الثالثة.29

فهنا الرمز متعدد والتصويت واحد، وفي العربية كيفية التصويت واحدة والرمز الذي فرّق بين الكتابات واحد أيضا.

وفي الأخير يمكننا القول إن " تأخر الكتابة عن الخطابة زمنا طويلا بين قبائل جزيرة العرب أدّى إلى موت اللهجات المرذولة، ولم يثبت من الكلام المنطوق غير ما حسن تدوينه بالكلام المكتوب."30

وهذا ما يمثّله في النظام الكتابي للغة العربية الفصحى قرب وارتباط الرمز المكتوب بالصوت المنطوق31 مقارنة باللغات الأخرى اليوم.

هذا لا يجعلنا نغفل عن الإشارة لوجود عيوب أيضا في اللغة العربية يمكن حصرها في غياب حروف مكتوبة تمثّل سمات صوتية معينة مثل النبر والتنغيم وغير ذلك من سمات الكلام العادي، والتي تعتبر جزءا لا يتجزّأ من نطق الجمل وضرورة للنطق السليم.32 وكذلك ظاهرة الترقيق والتفخيم رغم أهميتها.

ويشير مكي درار إلى أن سيبويه في كتابه يقدّم عملا لو لقي الاهتمام الكافي لحلّ ما يعانيه الدارسون والباحثون العرب من نقص في تعبير الرمز المرسوم عن النطق المسموع ، فقد حاول سيبويه " أن يُدخل للعربية رموزا بصرية جديدة تدلّ على ألوان صوتية مستجدة بتقعيد أصواتها وتقييدها وتحديد طريقة نطقها، ومن تلك الرموز علامات الاختلاس والإشمام والروم والوقف."33

وقد تمّ اليوم " اكتشاف إمكانية تصميم نظام خاص لكل لغة على حدة، ويتميز كل نظام بقلة الرموز والعلامات بحيث يمكنه تمثيل الصيغ المنطوقة في تلك اللغة تمثيلا كاملا، ويُعرف هذا بالنظام النسخي الواسع.34

وتبقى اللغة العربية مع كل ما يقال عنها أشدّ اللغات متانة من حيث علاقة الكتابة بالنطق أو ما يُسمّى علاقة الرمز الخطي بالصوت، وقد وجدت التعزيز التامّ بكتابة القرآن الكريم بها محافظا بذلك عليها صوتا وكتابة.

الهوامش :

شرف الدين الراجحي وسامي عياد حنا، مبادئ علم اللسانيات الحديث، (د ط، دار المعرفة الجامعية، 2002 م). ص93

2 يراجع: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، (ط: 5، مكتبة الأنجلو مصرية، 1979م). ص:06

3 ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسن الطيان ويحيى ميرعلم، (ط:1، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1983 م) ص:56

4 يراجع: ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: محمد حسن إسماعيل، وأحمد رشدي شحاتة عامر، (ط:1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 2000م) 19/1

5 يراجع: اندريه مارتينه، وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، (ط:1، بيروت، لبنان، دار المنتخب العربي، 1996م)، ص:121

6 يراجع: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، (ط:1، دمشق، دار الفكر، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1996م). ص: 106

7 مكي درار، الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه (خلفيات وامتداد)، (دط، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 2007م). ص:46

8 يراجع: عبد الغفار حامد هلال، الصوتيات اللغوية، (ط:1، القاهرة، درا الكتاب الحديث، 2008م). ص: 89

9 شرف الدين الراجحي وسامي عياد حنا، المرجع السابق، ص94

10يراجع: مصطفى حركات، الكتابة والقراءة وقضايا الخط العربي، (ط:1، بيروت، المكتبة العصرية، 1998م)، ص: 28

وطالب عبد الرحمن، نحو تقويم جديد للكتابة العربية، (ط:1، الدوحة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999م)، (كتاب الأمة، العدد التاسع والستون، محرم، 1420 هـ) ،ص:112-113.

11 يراجع: مصطفى حركات،الكتابة والقراءة، ص: 27، و طالب عبد الرحمن، نحو تقويم جديد للكتابة العربية،ص:89.

12 يراجع: حفنى ناصف، حياة اللغة العربية، (دط، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 2002م) ص: 44.

13 مصطفى حركات، الكتابة والقراءة . ص: 31

41 يراجع: حفنى ناصف، حياة اللغة العربية، ص: 39

51 يراجع: طالب عبد الرحمن،. ، نحو تقويم جديد للكتابة العربية ص: 97

16 ابن جني: سر صناعة الإعراب، 56/1.

17 يراجع: حفنى ناصف، حياة اللغة العربية ، ص: 38

18 عبد الغفار حامد هلال. الصوتيات اللغوية ص:89

19 يراجع: حفنى ناصف:. حياة اللغة العربية ص: 44

20 يراجع: طالب عبد الرحمن،.، نحو تقويم جديد للكتابة العربية ص: 72، 73

21 يراجع: مصطفى حركات الكتابة والقراءة .. ص:31

22 يراجع: طالب عبد الرحمن،.،.، نحو تقويم جديد للكتابة العربية ص: 72

32 يراجع: عبد الغفار حامد هلال. الصوتيات اللغوية ص:90.

24 يراجع: مصطفى حركات، الكتابة والقراءة. ص: 29

25 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

26 مصطفى حركات: الكتابة والقراءة. ص: 30

27 المرجع نفسه. ص: (30-31)

28 يراجع: المرجع نفسه، ص: 31. ويراجع: طالب عبد الرحمن، نحو تقويم جديد للكتابة العربية ، ص: 115

29 اندريه مارتينه، وظيفة الألسن وديناميتها. ص: 127

30 عبد الغفار حامد هلال: الصوتيات اللغوية. ص: 92

31 شرف الدين الراجحي وسامي عياد حن مبادئ علم اللسانيات الحديث .. ص: 93

32 يراجع: المرجع نفسه. ص: 94

33 مكي درار،، الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية. ص: 32

34 شرف الدين الراجحي وسامي عياد حنا، مبادئ علم اللسانيات الحديث. ص: 94